المحاضرة السّابعة: الاتّساق وآلياته:

يعتبر الاتساق من أهم المعايير النّصّية المتعلّقة ببنية النّص مباشرة، وإذا بحثنا عن أصل اللفظ (الاتساق) لغة وجدناه يعني: الانتظام، والتّمام والكمال، ومنه نجد قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ الانشقاق: [18] جاء في مفاتيح الغيب للرازي: "فاعلم أن أصل الكلمة من الاجتماع يقال: وسقته فاتسق كما يقال: وصلته فاتصل، أي جمعته فاجتمع ويقال: أمور فلان متسقة أي مجتمعة على الصلاح كما يقال: منتظمة، وأما أهل المعاني فقال ابن عباس إذا اتسق أي استوى واجتمع وتكامل وتم واستدار وذلك ليلة ثلاثة عشر إلى ستة عشر" ولهذا المعنى صلة وطيدة بالتعريف الاصطلاحي.

يعرّفه روبيرت دي بوجراند: " السّبك (الاتساق) وهو يترتب على إجراءات تبدو بها العناصر السّطحية على صورة وقائع يؤدي السّابق منها إلى اللاحق بحيث يتحقق لها التّرابط الرّصفي وبحيث يمكن استعادة هذا التّرابط"[1]

قسمت آليات الاتساق تقسيمات متباينة من قبل الدّارسين وأشهرها وأكثرها اعتمادا تقسيم هالداي ورقية حسن، حيث جعلا مظاهر الاتساق: الإحالة، الاستبدال، الحذف، الوصل، الاتساق المعجمي وفيه التكرار والتّضام.[2]

أولا: الإحـــــالة: يعرف دي بوجراند الإحالة فيقول: "هي صياغة أكبر كميّة من المعلومات بإنفاق أقلّ قدر ممكن من الوسائل"[3] ويعرفها أحمد عفيفي: "إن الإحالة علاقة معنوية بين ألفاظ معينة وما تشير إليه من أشياء أو معان أو مواقف تدل عليها عبارات أخرى في السياق، أو يدل عليها المقام، وتلك الألفاظ المحيلة تعطي معناها عن طريق قصد المتكلّم"[4]

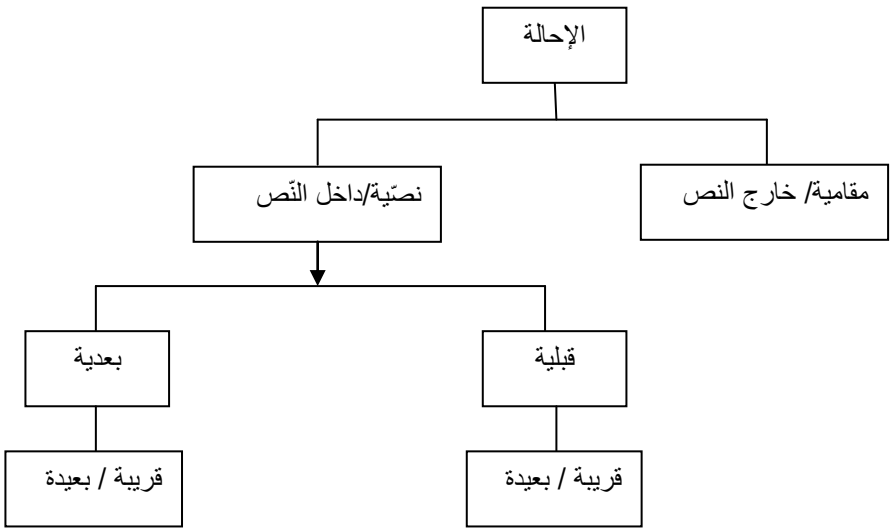

الأدوات الإحالية: الضّمائر (وجودية/ملكية) / أسماء الإشارة / الأسماء الموصولة / أدوات المقارنة، مثل (مثل، مشابه، غير، خلافا، علاوة على، بالإضافة إلى، أكبر من...[5].

---

[1] - روبيرت ديبوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص 103.
[2] - ينظر، محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2006م، ص11.
[3] -
[4] - أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النّص، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، دط، دت، ص13
[5] - ينظر، أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النّص، ص23-26.

أدوات الاتساق الإحالية: يحدّدها الأزهر الزّناد، فيقول هي :"قسم من الألفاظ لا تملك دلالة مستقلّة، بل تعود على عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب ، وهي تقوم على مبدأ التّماثل بين ما سبق ذكره في مقام ما وبين ما هو مذكور بعد ذلك في مقام آخر."[1] ويمكن أن تصنّف كما يلي:

- الضّمائر (وجودية/ملكية) الوجودية وهي الدالة على ذات (أنا أنت نحن هو هي هم)، والملكية مثل: كتابي- كتابك- كتابهم- كتابنا.
- / أسماء الإشارة : هنا هناك هنالك/ ذاك ذلك تلك/ هذا هذه...
- / أدوات المقارنة: ويقصد بها كل الألفاظ التي تؤدي إلى المطابقة او المشابهة أو الاختلاف: (مثل، مشابه، غير، خلافا، علاوة على، بالإضافة إلى، أكبر من..)

الأسماء الموصولة : بأنواعها الخاصة (الذي، التي...) والعامة (مَنْ، ما..) [1].

إشكالات الإحالة:

يمكن أن نلاحظ بعض الإشكالات في الإحالة نوجزها فيما يلي:

- **بعد المحيل عن المحال إليه:** كأن يُذكر الضمير أو المحيل بعد عدّة جمل من ذكر المحال إليه، فيصعب على الذّهن تذكّر المحال إليه.
- **احتمال عود المحيل على أكثر من محال إليه: كقوله تعالى.**﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فنلاحظ أن الضمير في يرضوه يحتمل العودة على مذكورين وهما (الله ورسوله).
- **ما ظاهره عدم التطابق بين المحيل والمحال إليه:** وذلك كقوله تعالى: ﴿**قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ**﴾ طه 20. فالضمير مثنى في ربكما والمحال إليه مفرد (موسى) عليه السّلام.

ثانيا: الاستبدال: إذا كانت الإحالة علاقة تعتمد على الدّلالة والمعنى، فالاستبدال علاقة نحوية معجمية داخل النّص، أي أنّنا إذا كنا في الإحالة سنعتمد على علاقات دلالية بين ا لمحيل والمحال عليه – خاصة في الإحالة القبلية والمقامية- فالأمر مختلف في الاستبدال الذي هو من قبيل تكرار عنصر بطريقة خاصة [1]، وقد اقترح هالداي ورقية، ثلاثة أقسام للاستبدال:

استبدال اسمي: ويتم باستخدام عناصر لغوية مثل: (آخر- أخرى- آخرون- نفس...)

مثال ذلك: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ﴾ البقرة 282.

فلفظ (الأخرى) في الآية الكريمة، استبدال من امرأة.

- **استبدال فعلي**: ويمثله استخدام الفعل (يفعل) مثل:

هل تعتقد أن الفريق الوطني سيفوز بالمباراة؟ أعتقد إن لعب بجدّ يفعل. فاللفظ (يفعل) استبدلت بكلام كان ينبغي أن يحل محلّها وهو (سيفوز بالمباراة).

- **استبدال قولي**: وقد يكون باستخدام (ذلك/تلك...) مثال ذلك قوله تعالى:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ **ذَٰلِكَ** مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ الكهف [64/63].

فاسم الإشارة (**ذلك**) بديل من قوله : ذلك (الأمر من نسيان الحوت واتخاذ سبيله في البحر عجبا هو ما نبتغيه).

ثالثا: الحذف: وفيه يقول عبد القاهر الجرجاني :" هو بابٌ دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيهٌ بالسحر، فإنّك ترى به تركَ الذكر أفصحَ من الذكر، والصمتَ عن الإفادة أزيدَ للإفادة، وتجدُك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِنْ."[(1)]

جاء في تقديم تمام حسان لكتاب روبيرت دي بوجراند أنّ الحذف " اعتداد بالمعنى العدمي على ما يسمونه"*Zero Morpheme* فالبنيات السطحيّة في النصوص غير مكتملة غالباً بعكس ما قد يبدو لمستعمل اللّغة العادي، ففي قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ﴾ لا مفرّ من فهم " شهد الملائكة وشهد أولو العلم " بدليل ما في آخر الآية من قوله تعالى: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، ولولا هذا الفهم لجعلنا الملائكة وأولي العلم آلهة مع الله سبحانه وتعالى."[(1)].

قسم هاليداي ورقية حسن الحذف إلى ثلاثة أقسام أيضا:

- **الحذف الاسمي**: ويقصد به حذف اسم داخل مركّب اسمي:

مثل:" أي قبّعة تستلبس؟ هذه أحسن، واضح أن القبّعة قد حذفت في الجواب"[1]

- **الحذف الفعلي**: ويقصد به الحذف في المركب الفعلي: مثل قول أبي فراس الحمداني:

حفظتُ وضيّعتِ المودّة بيننا***وأحسن من بعض الوفاء لك العذرُ.

فهو يريد أن يقول (حفظتُ المودّةَ وضيّعتِ المودّة).

- **حذف شبه الجملة والجملة**: وهو الحذف في شبه الجملة، أو حذف الجملة كاملة، أي حذف (المسند والمسند إليه)، ويكون هذا غالبا في الجواب عن الاستفهام: مثل:

رابعا: الوصل: يعتبر الوصل آلية أخرى يساهم في اتساق النّص وهو في ذلك يختلف عن الإحالة والحذف والاستبدال، إذ في هذه الآليات نجد إشارة تعود إليها في النّص سابقة أو لاحقة، بينما الوصل "لا يتضمن إشارة موجهة نحو البحث عن المفترض فيما تقدم أو ما سيلحق...إنّه تحديد للطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكل منتظم"[1].

- **الوصل الإضافي**:يقول مُحَمَّد خطابي:"يتم الربط بالوصل الإضافي بواسطة الأداتين (و) و(أو)، وتندرج ضمن المقولة العامة للوصل الإضافي علاقات أخرى مثل: التّماثل الدّلالي المتحقق في الرّبط بين الجمل بواسطة تعبير: بالمثل...؛ وعلاقة الشرح وتتمّ بتعابير مثل : أعني، بتعبير آخر...وعلاقة التّمثيل، المتجسّدة في تعابير مثل: مثلا، نحو..."[1]، ونلاحظ هنا ما ذكرناه سلفا ، أن الربط في حسب يتعدى الحروف، فنجد فيه الفعل (أعني) والاسم (مثلا/نحو)، والتي لو قابلنهاها لما جاء في اللغة العربية ما وجدناها ضمن أدوات الربط العاطفة.

– **الوصل الزّمني**: يعرف الباحثان هالداي ورقية حسن هذه العلاقة بأنها تربط جملتين متتاليتين في تسلسل زمني، وأكثر أدوات هذا الربط (ثم)، ويظيف الباحثان، أن هذه الأداة ليس الوحيد، فيمكن استعمال(بعد ذلك، حينئذ، أيضا..)[1] وكلّ ما يفيد ترتيب الأحداث الزمنية بين الجمل.

من ذلك قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ **ثُمَّ** يُمِيتُكُمْ **ثُمَّ** يُحْيِيكُمْ **ثُمَّ** إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾.[البقرة:28]. واضح أن حرف العطف (ثم) في الآية والذي كُرّر ثلاثة مرّات، قد أفاد الترتيب الزّمني (الخلق) ثمّ (الإماتة) ثمّ (الإحياء) ثمّ (الرجوع إليه).

– **الوصل العكسي**: ويفيد أن الجملة التّابعة مخالفة للمتقدّمة ومن أدواته: (لكن، غير أن، ، بل...).

- ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ **وَلَكِن** شُبِّهَ لَهُمْ ١٥٧﴾ النّساء.
- ﴿**بَلْ** قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ **بَلِ** افْتَرَاهُ **بَلْ** هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ الأنبياء.

- **الوصل السّببي: ويندرج ضمن علاقات خاصة كالنتيجة والسّبب** والشّرط ومن أدواته: (لأن، من أجل ذلك، لـ، لكي...).
- ﴿**مِنْ أَجْلِ** ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾ المائدة.

خامسا: الاتساق المعجمي: وينقسم إلى قسمين:

1- التّكرار: " وهو شكل من أشكال التّماسك المعجمي التي تتطلّب إعادة عنصر معجمي، أو وجود مرادف له أو شبه مرادف، ويطلق البعض على هذه الوسيلة،(الإحالة التكرارية) وتتمثل في تكرار لفظ أو عدد من الألفاظ"[1] وللتكرار عدّة صور منها:

إعادة اللفظ نفسه: وقد تكون الإعادة مماثلة تماما، وقد تكون إعادة جزئية، تكون العلاقة الرابطة بين اللفظين ارتباطهما بنفس الجذر مثل: قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ الزلزلة 2/1. ففي الآية السابقة تكرار تام بين (الأرض/الأرض)، وتكرار جزئي بين (زلزلت/زلزالها).

2- الترادف: وهو إعادة المعنى واختلاف اللفظ: وهو "ألفاظ متّحدة المعنى وقابلة للتبادل فيما بينها في أيّ سياق"[1]، ويقسّم بعض الدّارسين التّرادف إلى ترادف تام، وهو ما يؤدي نفس المعنى رغم أن بعض أهل اللغة لا يقرّون الترادف التّام في اللغة ، وشبه ترادف، وهو ما يوجد فيه تكرار للمعنى مع وجود فروق بين المعنيين في دلالة اللّفظ.[1]

والتّكرار عند هالداي ورقية حسن :" يتطلّب إعادة عنصر معجمي، أو ورود مرادف له أو شبه مرادف، أو عنصرا مطلقا أو اسما عامّا، والمثال التّالي يوضح كلّ حالة على حدة:

الصّعود

التّسلّق

(شرعت في الصعود إلى القمّة العمل سهل للغاية)

الشيء

هو

فالكلمة (الصعود) تعتبر إعادة لنفس الكلمة الواردة في الجملة الأولى، و(التّسلّق) مرادف للصعود و(العمل) اسم مطلق أو اسم عامّ يمكن أن يدرج فيه الصّعود أو مسألة الصّعود، و(الشّيء) كلمة عامّة تندرج ضمنها أيضا الكلمة (الصعود)، الخ."[1]

2– التّضام: ويكون بين لفظين تربط بينهما علاقة ما، والقارئ هو من يُحدّد هذه العلاقة معتمدا على " حدسه اللغوي وعلى معرفته بمعاني الكلمات وغير ذلك، وهذا يعني أننا لا نتوفر على مقياس آلي صارم يجعلنا نعتبر هذه الكلمة أقرب إلى هذه المجموعة أو تلك، ومن ثمّ فكلّ ما نستطيع قوله هو أن هذه الكلمة أشدّ ارتباطا بهذه المجموعة من ارتباطها بمجموعة أخرى."[1] والعلاقات التي يمكن أن ترتبط بها الكلمات مع بعضها متنوّعة، ويمكن تصنيفها إلى عدّة علاقات منها:

أ. علاقة التّقابل.(سماء /أرض)، (يمين/يسار)،...

ب. علاقة التّضاد.(كريم/بخيل)، (صدق/كذب)...

ت. علاقة الجزء بالكلّ والعكس. (يد/ جسد)، (عجلة/دراجة)...

ث. علاقة الاشتمال. وهي تشبه العلاقة السّابقة غير أنها لا تشكل جزءا من كل ، بل علاقة واحد بفيئة ، مثل (أسد/حيوانات)، (المشترى/المجموعة الشمسية)..